عرفت هؤلاء

بقلم : أنور السادات

كنت سعيدا بانتصارنا . فقد اضطرت رياسة الجيش الى سحب اوامرها بتسليم اسلحتنا الى القوات البريطانية . وكنت انا وراء هذه العملية . واقنعت زملائي برفض تسليم سلاحهم للانجليز الا على جثثنا !

يومها ازداد حماسي ، وتصورت ان من السهل جدا ان نقوم بثورة مسلحة تقتحم القاهرة ، وتطرد الانجليز ، وتعلن الاستقلال ! واستطعت اقناع زملائي بالاشتراك معي في القيام بالثورة المسلحة . واتفقنا على ان نتوجه بجنودنا واسلحتنا ، الى نقطة خلف مينا هاوس عند مدخل القاهرة .

وبالفعل .. وصلت الى نقطة التجمع ، وانتظرت وصول باقي الزملاء وطال انتظاري .. ولم يحضر احد ! ،

عزيز المصري .. يطارد الشيطان !

أغارت القاذفات الايطالية على القطار القادم من مرسى مطروح في طريقه الى مدينة الاسكندرية . وكان القطار يحمل عددا من الضباط والجنود الانجليز . وكنت الضابط المصري الوحيد الموجود في القطار . والقطار مصري وقطار حربي .. اى انه اساسا للعسكريين وعلى الفور توليت مسئولية اتخاذ القرارات بعد ان انتهت الغارة ليس فقط بحكم اقدميتي بالنسبة للضباط الانجليز المسافرين معنا في القطار ، وانما اولا بحكم مصريتي ووجودي في ارض مصرية وداخل قطار مصري .

ولم يعترض الضباط الانجليز . بل انهم كانوا يسالون عن اقدم ضابط مصري لكي يتولى مواجهة الموقف ووافقوا على تنفيذ تعليماتي لمواجهة الموقف . وتوجهت الى القاطرة . بعد ان انتهت الغارة ، للاطمئنان على السائق وزميله العطشجي . وكان الاخير مصابا اصابة قاتلة . ومات في مكانه اما سائق القطار فكان جالسا متربعا امام باب فرن القاطرة ، والدم ينزف بغزارة من راسه ، وهو يتمايل ويقول بصوت خافت : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

واسرعت انادي على اول عربة اسعاف بريطانية جاءت من معسكر باجوش القريب من ذلك المكان ، لمحاولة انقاذ السائق المصاب ..

ونزلت من القاطرة ابحث عن الضابطين الانجليزيين ، فوجئت بهما داخل احدى العربات التي بها ركاب من الجنود الانجليز ، الذين قتلوا بطلقات المدافع الرشاشة التي اخترقت سقف العربة ، واخذا يفتشان في جيوب قتلاهم ، ويسلبانهم ما فيها من نقود ، وساعات ، وعلب السجاير ! هكذا بكل بساطة ، وبطريقة تلقائية ، ليس فيها اى مظهر من مظاهر الانسانية او احترام الموتى!

وطلبت من الضابطين مساعدتي في نقل سائق القطار المصاب الى المستشفى . ولم يردا علي الا بعد ان انتهيا من عملية ، التهليب ، التي كانا يقومان بها . وبدانا نقل الجرحى وفي هذه المرة تنبه الانجليز الى وضعهم كمحتلين لبلادنا . فاصروا على نقل جرحاهم اولا ، ثم نقلنا السائق المصري - واذكر ان اسمه خاطر ولا اتذكر اسمه بالكامل - الذي لم يتحمل عملية النقل ، وعلمت انه مات وهو في الطريق الى المستشفى .

وعدت الى القاطرة ، واخذت الحقيبة الصغيرة الخاصة بالسائق . وحملتها وسلمت محتوياتها الى الخزانة الرسمية - كما تقتضي التعليمات - وكان بداخل الحقيبة ماهية السائق التي كان قد قبضها في صباح نفس اليوم ، ولم يسعفه العمر لتسليمها الى اسرته . ولم اكتف بذلك وانما كتبت تقريرا اتهمت فيه الانجليز بمسئولية اهمال نقل السائق خاطر ، واصرارهم على نقل قتلاهم اولا . وذكرت في التقرير ان الانجليز رفضوا رأيي بضرورة نقل المصاب اولا ومحاولة انقاذ حياته . ورفعت التقرير الى قيادة سلاح الاشارة .

واصيب قائد السلاح - وهو مصري - بالخوف والهلع . فكيف يمكن لضابط صغير مثلي ان يوجه هذا الاتهام الخطير للانجليز الذين كانوا يسيطرون على كل شيء في البلد ! ولم ينس قائد السلاح ما سببته له من احراج بسبب تقريري . وحاول بكل ما في استطاعته ان ينتقم مني ، بعد ذلك ، بكل ما يملكه من سلطة ، سامحه الله وغفر له .

ولم اهتم بهذا كله ، كعادتي ..

لقد كنت حزينا من اجل السائق ، وكنت اعتقد ان اهمال الانجليز في نقله الى المستشفى بسرعة ، هو الذي تسبب في موته . فازداد حنقي وكراهيتي للانجليز .. الذين لم تهتز لهم شعرة واحدة امام جلال الموت ، واهتموا فقط بسلب ونهب جنودهم القتلى !

وسلمت الايصال الدال على وجود حقيبة السائق ، خاطر ، لافراد اسرته . ليستردوها ويداخلها ماهية الرجل المسكين التي لم تزد على الثلاثة عشر جنيها !

وعدت الى معسكري ، وانا اكثر حماسا وتصميما على تشكيل التنظيم السري من الضباط الاحرار ، لانقاذ البلاد من هذا المحتل البغيض الجاثم فوق انفاسنا .

في هذا الوقت وقف علي ماهر باشا واعلن ان ، سياسة مصر هي تجنيبها ويلات الحرب ، . وكان الانجليز يريدون ان يدخل الجيش المصري ليحارب معهم ضد المحور .

وثار الانجليز على علي ماهر ثورة عاتية . وهي التي ادت الى القبض عليه ، وطرده ، بعد ذلك . ولم يكن قرار (تجنيب مصر ويلات الحرب) مجرد اغاظة للانجليز فقط . وانما كمطلب شعبي عام .

وصدرت الاوامر بسحب القوات المصرية من مطروح ، وترك مواقعها للانجليز لمواجهة حربهم ضد الايطاليين . ولم يستطع الانجليز الغاء هذا القرار . فقط طلبوا بترك اسلحتنا لهم !

وانتهزتها فرصة لا تعوض . ودرت على جميع الوحدات ، وتحدثت الى زملائي الضباط قائلا لهم :

- ان الانجليز يحاولون عقابنا لعدم الوقوف بجانبهم في حربهم ، فامروا بان نسلم اليهم سلاحنا ! فهل يقبل ضابط واحد منكم ان يسلم سلاحه ؟!

ولم اجد ضابطا واحدا يوافق على ان يسلم سلاحه . واكد لي جميع من قابلت معهم انهم يفضلون الموت ، على ان ينتزع منهم احد السلاح الذي في ايديهم .

ووصل الامر الى اسماع رياسة الجيش . وقيل لها ان جميع الضباط والجنود المصريين يرفضون تسليم اسلحتهم للجيش البريطاني . وانهم اكدوا ان الموت اشرف لهم الف مرة ، من ان ياتي الانجليز وياخذوا منهم السلاح .

وخضعت رياسة الجيش ، امام اصرار الضباط المصريين . واضطرت الى ان تلغي قرارها بتسليم اسلحة القوات المصرية في مرسى مطروح الى القوات البريطانية . ووافقت على ان تعود تلك القوات الى القاهرة ، باسلحتها كاملة .

وسعدت بهذا القرار سعادة كبيرة . فقد كنت انا صاحب هذا الراي . وكنت انا اقنعت الضباط برفض تسليم اسلحتهم الى الجيش البريطاني . ولم تستطع رياسة الجيش المصري ، ان تجبرنا على تسليم اسلحتنا ، واضطرت الى الموافقة على وجهة نظرنا ، والعودة الى القاهرة بسلاحنا ..

يومها انفعلت ، وتحمست ، وتصورت ان من السهل جدا ان نقوم بثورة مسلحة ضد الانجليز ويكتب لها النجاح كما كتب لموقفنا من مسالة تسليم الاسلحة . واستطعت - بالفعل - اقناع زملائي بالقيام بالثورة ، بمجرد عودتنا الى القاهرة .

ووضعت خطة سريعة ، تتلخص في ان نتجمع نحن القوات المصرية المنسحبة من مرسى مطروح بكافة اسلحتنا عند مدخل القاهرة - خلف فندق مينا هاوس - بعد عودتنا من مرسى مطروح عن طريق اسكندرية/القاهرة الصحراوي ، ثم نتوجه راسا الى قلب القاهرة لاحتلالها ، واعلان ثورتنا المسلحة!

وبدانا تنفيذ خطتنا السرية ..

وقمنا بشحن الاسلحة الثقيلة بالقطار ، اما الاسلحة الخفيفة فيتم نقلها بالسيارات . واتفقت مع زملائي على ان نقضي ليلة في الاسكندرية ، ثم نواصل سيرنا في اليوم التالي ، عبر الطريق الصحراوي الى القاهرة ، ونتجمع خلف فندق مينا هاوس .. وهناك نتفق على الخطة وتوزيع الادوار ، والمسئوليات ، قبل ان نقتحم القاهرة ونعلن عن ثورتنا .

وبالفعل قمت بتنفيذ الخطة من جانبي . وامضيت ليلة في الاسكندرية ، ثم توجهت في اليوم التالي الى القاهرة . وخلف فندق مينا هاوس توقفت ومعي اسلحتي ، ورجالي . وانتظرت .

وطال انتظاري . ولم يظهر احد . ولم يات ضابط واحد .

واتضح انني الوحيد الذي التزم بالاتفاق السري . وتبين ان الضباط الذين اتفقوا معي على القيام بالثورة ، والتوجه الى خلف فندق مينا هاوس ، اخلوا بالاتفاق ، او لعلهم نسوه تماما مع فرحة ترك صحراء مطروح ، والعودة الى الاهل والاصحاب في القاهرة ! فقد قرروا عدم المبيت في الاسكندرية - كما اتفقنا من قبل - وواصلوا رحلتهم تجاه القاهرة ، ووصلوا قبلي بيوم كامل ، فلم يتوقفوا عند مينا هاوس ، وانما اسرعوا الى منازلهم في قلب القاهرة !

وفشل التوقيت الاول للثورة الاولى التي خططتها ووجدتني وحدي .

وواصلت طريقي حتى معسكر سلاح الاشارة في المعادي . وهناك قررت ان اعيد اتصالي بعزيز المصري مرة اخرى . فلم يزعزع فشل الثورة الاولى التي اردت القيام بها من تصميمي على ضرورة التحرك ، والاعداد لثورة مسلحة تحقق امالي وامال شعبنا . بل ان فشلي الاول اعطاني الفرصة للدراسة ، والتخطيط السليم .

وكنت اتابع هزائم الحلفاء على ايدي دول المحور ، اولا باول . وكانت القوات الالمانية قد استولت على المستعمرات الفرنسية في الشام ، اى سوريا ولبنان بعد هزيمة فرنسا وتسليم بيتان وحكومة فيشي . وكان .. يقيم في مدينة بيروت سياسي الماني مشهور هوفون روزين وفي هذه الاثناء قام رشيد عالي الكيلاني بثورته في العراق .. بهدف تحرير بلاده من قبضة الانجليز وساندته المانيا وساعدته على انجاح ثورته .

وفكر الالمان في الاتصال بعزيز المصري . فقد كانوا يعرفون الكثير عنه ، وعن قدراته ، وعن تاريخه القديم خلال الحرب العالمية الاولى عندما حارب عزيز المصري بجانب تركيا عندما كانت تركيا حليفة لالمانيا .

وذات يوم ، وكنت في زيارة عادية لعزيز المصري في منزله بعين شمس ، فوجئت بعزيز المصري يقول لي :

- يا انور .. اريد ان اقول لك عن موضوع في غاية الاهمية . تعال معي نخرج الى الحديقة .

وتركنا منزله وتجولنا في حديقة المنزل الواسعة ، ثم سمعت عزيز المصري يقول لي :

- لقد اتصل بي الالمان وطلبوا مني ان اذهب اليهم في بيروت !

وسالته :

- هل قالوا لك عن سبب رغبتهم في مقابلتك ؟

فقال :

- لا .. وان كنت اعتقد ان الامر يتصل بالثورة التي قام بها صديقي رشيد عالي الكيلاني في العراق . فانت تعلم ان الزحف الالماني في روسيا وصل الان الى مشارف القوقاز . فقد عبروا شبه جزيرة القرم ووقفوا عند حدود القوقاز . وكان المخطط الالماني يهدف الى ان ياتي روميل ويعبر مصر ليلتقي مع القوات الالمانية القادمة من القوقاز وتركيا ، والعراق ، في طريقها الى الهند التي كانت تمثل حلما من اغلى احلام هتلر .

وملاني هذا الخبر فخرا بعزيز المصري . فالرجل صديق قديم لرشيد عالي الكيلاني . كما انه يعرف مناطق القوقاز وبلغاريا كما يعرف بيته في عين شمس . فقد حارب مع الجيش التركي في تلك المناطق واكتسب فيها خبرة ومعرفة كبيرتين .

وسالت عزيز المصري :

- وما هو المطلوب منا ان نعمله ؟

فرد عزيز المصري :

- عميلهم اليوناني الذي التقيت به في جروبي ونقل لي رغبة الالمان في رؤيتي ، اخبرني بانهم سيرسلون لي طائرة المانية لنقلي من القاهرة الى بيروت ! وطلبوا مني ان احدد لهم المكان الذي ستهبط فيه الطائرة ، على ان يكون في اى صحراء قريبا من القاهرة واكون في انتظارها هناك ساعة الغروب عندما يحسنون اليوم . فما رايك ؟

فقلت له :

الامر في منتهى السهولة وسابحث لك عن ارض نزول مناسبة وقريبة من القاهرة كما طلبوا .

ولم يكن من المعقول طبعا ان نفكر في اى مطار من المطارات العسكرية التي يسيطر عليها الانجليز وبدانا البحث عن ارض نزول خارج القاهرة وليست بعيدة جدا عنها او مطار قديم غير مستخدم اي يكون مهجورا .

وتذكرت ان لدى الانجليز مطارا في الخطاطبة بالقرب من القاهرة وهذا المطار غير مستخدم تقريبا واحضرت خريطة حددت فوقها مكان المطار وعرضتها على عزيز المصري ووافق عزيز المصري وقال :

لنذهب لمعاينة المكان على الفور .

وركبنا سيارة عزيز المصري من طراز سكودا واصطحبنا معنا عبد المنعم عبد الرءوف الطيار الذي اخترته ليعمل معي في التنظيم السري ويكون نائبا عني في كل شيء .

وانطلقنا بالسيارة تجاه الخطاطبة .

وتوقفنا عند المطار ولاحظنا ان ارضيته مغطاة بطبقة من الاسمنت المسلح وليس من الاسفلت ونزلنا من السيارة لنعاين المكان على الطبيعة . وكان من الواضح انه غير مستخدم بدليل عدم وجود علامات لاطارات الطائرات فوق طبقة الاسمنت .

وقبل ان نهنيء انفسنا على اكتشافنا العظيم فوجئنا بوجود مخازن بريطانية على يمين وعلى شمال المطار!

وكاننا فار دخل الى المصيدة ! وتوقعنا ان ياتي الجنود والضباط لالقاء القبض علينا وبدء التحقيق الطويل معنا . واتضح لنا ان هذه هي مخازن الذخيرة الرئيسية للقوات البريطانية في مصر .

وامتلا قلبي بالخوف فانا المسئول عما حدث فقد اخترت هذا المطار وكنت انه غير مستخدم وبالتالي فان حياة عزيز المصري مسئولة مني . وكل ما استطعت ان اقوله هو اننا يجب ان نغادر هذا المكان باسرع ما يمكن .

ووافقني عزيز المصري على رأيي ولتدفع الى عجلة القيادة وامرنا بان نركب السيارة بسرعة وانطلق بنا عزيز المصري يجري بسيارته السكودا الصغيرة بشكل لم اكن اتصوره او اتوقعه من عزيز المصري بالذات . فسيارته - سكودا - مزودة بطارات رفيعة وغير صالحة للسير فوق الرمال الناعمة . وكان من التوقع ان تغرز تلك الاطارات في الرمال بين خطوة واخرى

ولكن عزيز المصري قاد السيارة بمهارة لم اشهدها في حياتي . لقد خيل الي انه كان يعرف اين الرمال الرخوة فيبتعد عنها ، واين الارض الصلبة فيتجه اليها . وكان في ابتعاده واقباله يجري بسرعة رهيبة وكانه يطارد الشيطان او يطارده الشيطان !

ولم يتوقف عزيز المصري ليلتقط انفاسه الا بعد ان وصلنا الى طريق القاهرة اسكندرية وبعد ان قطعنا المسافة في ساعة ونصف لا تنسى ابدا .

وحتى يومنا هذا لا اعرف كيف نجونا من الانجليز بل وكيف نجونا من حادث انقلاب السيارة المتوقع في كل لحظة نتيجة القيادة البهلوانية التي كان يقوم بها عزيز المصري ؟!

المهم جلسنا - عزيز المصري وعبد المنعم وانا - واتفقنا على استحالة هبوط الطائرة الالمانية في هذا المطار المحاط بترسانة ذخيرة بريطانية من كل جانب!

وعدنا الى القاهرة على امل البحث عن مطار جديد اكثر امنا ..

وفي مساء اليوم التالي وعقب عودتي الى منزلي فوجئت برسالة من عزيز المصري يطلب مني فيها ضرورة الذهاب اليه فور عودتي وكانت الساعة قد تعدت العاشرة مساء ونزلت مرة ثانية وتوجهت الى بيت عزيز المصري . وكان الرجل في انتظاري وبمجرد جلوسي امامه قال :

لقد ارسل لي الالمان اشارة اليوم حددوا لي فيها المكان الذي اختاروه لهبوط الطائرة . فعلى طريق القاهرة - الواحات المتفرع من طريق القاهرة - الفيوم يوجد جبل اسمه جبل رزه .

وعند هذا الجبل ستهبط الطائرة في واد صغير امام الجبل .

وفوجئت بما قاله لي عزيز المصري او على الاصح فوجئت بما يعرفه الالمان عن بلادنا وقال لي عزيز المصري انهم سبق ان مسحوا الصحراء المصرية شبرا شبرا .. عن طريق بعثات الاستكشاف التي كانت تصل الى مصر وتقيم فيها فترات طويلة تدرس خلالها الصحراء وتحدد معالمها وترسمها فوق الخرائط .

وسالني عزيز المصري :

هل تعرف جبل رزه هذا ؟

فقلت له :

نعم اعرفه فهو مرتفع ويمكن ان تراه من اى مكان وهو واضح جدا على الخريطة .

فقال :

اريدك ان تذهب غدا لتستكشف المكان وتقدم تقريرا الي عنه .

وبالفعل ذهبت في اليوم التالي واستاجرت سيارة من طراز « اوبل » من صاحب محل لتاجير السيارات اسمه انور في شارع الانتيكخانة وكانت تلك الصالات تؤجر سياراتها للجنود الانجليز فقط دون المصريين ولا اعرف السبب الذي جعل انور هذا - رحمه الله - يوافق على ان يؤجر لي احدى سياراته !

وركبت السيارة وانطلقت بها في اتجاه جبل رزه . ولم اكن - بالطبع - في مهارة عزيز المصري في قيادة السيارة فوق رمال الصحراء .. فقبل ان اصل الى جبل رزه بنحو ١٠ كيلو مترات اضطررت الى التوقف خوفا من ان تغرز عجلات السيارة ولا استطيع انتشالها منها مما يعرضني لاكتشاف امري في حالة ظهور الانجليز وما اكثر مرورهم في تلك المناطق .

وعدت الى القاهرة وذهبت لتوي الى بيت عزيز المصري وقلت له انني رايت الجبل وانني لم اتمكن من الوصول اليه خوفا من الرمال الرخوة . وقلت له انني ساشتري سيارة مزودة بطارات عريضة ، بالون ، تصلح للسير فوق الرمال .

ولم اتردد وذهبت الى وكالة البلح وعاينت سيارة بيك اب من مخلفات الجيش البريطاني مستعملة بثمن رخيص واشترطت على البائع ان يضع فيها اطارات بالون فتنبه البائع لطلبي وقال لي : سأحتاج لمهلة يومين قبل ان احضر لك الكاوتش البالون فما رايك ؟

فقلت له :

لا مانع وسامر عليك بعد يومين لاتسلم السيارة بالكاوتش البالون .

ورجعت لعزيز المصري سعيدا وقلت له :

لقد اشتريت سيارة وبعد العربون وسنتسلمها بعد يومين ولن نكون في حاجة للذهاب الى جبل رزه للاستكشاف فالسيارة مزودة باطارات بالون قادرة على الجري فوق الرمال دون ان تغرز وتغوص فيها فاطمئن عليك فقط ان تتفق مع الالمان على موعد وصول الطائرة الى جبل رزه لنكون في انتظارها كما اقترح ان ترسل لهم وتطلب ان يرسلوا لنا في تلك الطائرة اسلحة وذخيرة وقنابل .

وارسل عزيز المصري اشارة بما تم الى الالمان وطلب منهم ارسال اسلحة مختلفة في الطائرة فوافقوا على طلبنا وحددوا اليوم الذي ستصل فيه الطائرة وكان بعد اسبوع من وصول تلك الاشارة اللاسلكية .

وعرفت ان الطائرة التي ستصل من نوع غريب وفريد فهي مزودة بثلاثة محركات وكنت اظن ان جميع الطائرات باربعة محركات او باثنين فقط . وكانت هذه هي المرة الاولى التي اسمع فيها عن طائرة بثلاثة محركات . وقيل لي ان تلك الطائرة خاصة بالقواد فهي لا تحتاج الى مطار طويل لتهبط فيه او تقلع منه وتستطيع ان تقلع بعد الجري بضعة امتار قليلة فوق الارض

وقبل ان اذهب لاستلام السيارة البيك اب فوجئت بامر عسكري بنقلي على الفور الى الخيمة في الجراولة ! وهي تقع في قلب الصحراء عند مرسى مطروح ولا تشكل اية اهمية عسكرية ولم يكن امر النقل مفاجأة لي . فقد كنت اتوقع حدوث اي شيء فلم يكن خافيا علي ان المخابرات العسكرية والبوليس الحربي والمخابرات البريطانية من خلفي لرصد حركاتي ومراقبتي منذ اليوم الاول الذي قابلت فيه عزيز المصري !

واتصلت على الفور بزميلي عبد المنعم عبد الرءوف وقلت له :

غدا تذهب ومعك هذه النقود وتدفعها للتاجر وكالة البلح وتتسلم منه السيارة البيك اب وتذهب بها وتنتظر الاوامر من عزيز المصري .

وكان الامر الذي تلقيته ان اكون في الجراولة خلال ٢٤ ساعة وكنت اعرف ان هذا النقل هو لمجرد الابعاد عن القاهرة . فعمل سلاح الاشارة في الجراولة يقوم به جندي برتبة اومباشي فكيف يطلب من يوزباشي مثلي ان يذهب الى هناك ويحل محل الاومباشي في العمل على جهاز لاسلكي بسيط ؟

وطرات فكرة على بالي ..

وقمت بتنفيذها بلا انني تردد ..

[illegible]

ذهبت الى انور صاحب محل تاجير السيارات واستاجرت منه نفس السيارة الاوبل ومشيت بها في احد الشوارع الخالية ثم اقتربت من عمود انارة فوق الرصيف واصطدمت به صدمة بسيطة مرسومة وكافية لاقناع النفس بانها حادثة .

وجاء المارة بسرعة لانقاذ سائق السيارة التي اصطدمت بعمود الانارة وقبل وصولهم كنت قد وضعت راسي فوق عجلة القيادة واغلقت عيني وكانني مغمى علي !

وحملوني حملا لنقلي في سيارة اخرى الى اقرب مستشفى عسكري وكان بالقرب من كوبري القبة وقام المستشفى بابلاغ سلاح الاشارة بان اليوزباشي محمد انور السادات اصيب في حادث سيارة ويحتاج الى علاج بالمستشفى لمدة اسبوع !

وموعدنا في الحلقة القادمة باذن الله ...

أنور السادات